تعريف ونقد

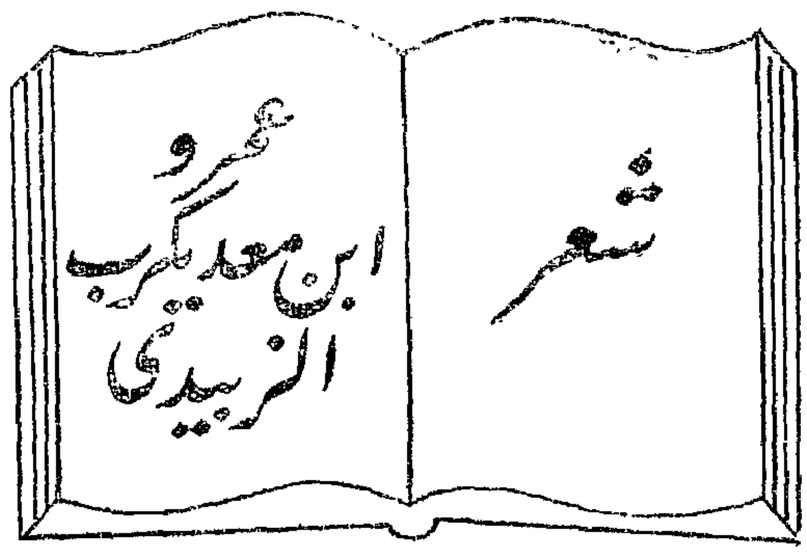

جمعه وصنعه
الأستاذ مطاع الطرابيشى

تعريف ونقد : الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

صاحب هذا الشعر الذى جمعه المحقق فى ديوان واحد هو الشاعر الفارس عمرو بن معد يكرب الزبيدى صاحب السيف المشهور المعروف بالصمصامة .وهو شاعر عاش فى الجاهلية زمنا ، ثم أسلم حين جاء الإسلام .وهنا اختلاف غير قليل :أهو صحابى شرف بصحبة النبى عليه السلام ،أم هو تابعى أسلم بأرض اليمن حين بلغته الدعوة ؟ وتشير أصح الروايات إلى أنه أسلم سنة تسع أو عشرمن الهجرة فى وفد من زبيد (بضم الزاى على صيغة التصغير) :

وإذا كان إسلام شاعرنا عمرو بن معد يكرب لم يكتب له الحسن والإحسان فى أول أمره ، لما كان من عدم تمسكه بأصول الدين الجديد أولا ، ولما كان من اشتهاره بمعاقرة الخمر . ولما كان أخيرا من أمر ردته ، فإنه بعد ذلك رجع إلى الإسلام ؛ وشارك فى الجهاد وفى فتوح الشام والعراق وأبلى فى وقعة اليرموك بلاء حسنا ، حتى ذهبت عينه فى المعركة ، وذكره ابن حبيب صاحب (المحبر) فى فصل عنوانه: (من فقئت عينه من الأشراف فى الحرب) وهو فصل يسجل أسماء من ذهبت عيونهم فى خلال المعارك من أمثال أبى سفيان صخر بن حرب الذى ذهبت عينه يوم الطائف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمغيرة بن شعبة الذى ذهبت عينه فى يوم القادسية ، وعدى بن حاتم الطائى الذى فقئت عينه يوم الجمل مع على رضى الله عنه .

وقد لمع اسم عمرو بن معد يكرب قائدا بطلا مظفرا فى الحروب . وكانت شهرته تزكيه عند اختيار الأبطال للقاء العدو : ففى حرب العراق كتب عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة بن الجراح وهو بالشام يحارب الروم أن يمد سعد بن أبى وقاص فى العراق بجيش ، فأمده بألف فارس كان على رأسهم شاعرنا عمرو. فساروا حتى وفدوا على سعد بن أبى وقاص بالقادسية .

ولقد بلغ من فروسية عمرو بن معد يكرب أن قصصا بطولية كثيرة حيكت حول شجاعته وإقدامه نفسه على المكاره،

وقوة جسده ، وعظم بنائه الذى يدخل الرعب فى قلوب من يلاقيه من العدو ، حتى لقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا نظر إليه تعجب من ضخامة هيكله ، وعظم خلقه قائلا : (الحمد لله الذى خلقنا ، وخلق عمرا !) .

ولم يكتف شاعرنا بشجاعته وإدارة السيف فى يده ، فلقد جمع إلى ذلك الرأى وحسن التدبير ، وبهذا جمع بين الحسنيين — وقد حرص الخليفة عمر على أن يفاد دائما من رأى الشاعر عمرو وحسن مشورته ، فكتب كما جاء فى الأغانى والأصابة والعقد الفريد إلى سعد بن أبى وقاص — أو النعمان ابن مقرن — يأمره أن يصدر فى الحرب عن مشورة عمرو : (فإن كل صانع هو أعلم بصناعته) .

وتأبى البطولة النادرة إلا أن تلازم شاعرنا منذ شبابه الباكر ، فلم تفارقه لحظة فى جاهلية أوإسلام . وكثيرا ماشارك فى حروب قبيلته : زبيد مع غيرها فى الجاهلية ، حتى أحال هزائمها إلى نصر مؤزر ، وبهذ استحق أن يطلق عليه بحق لقب : فارس زبيد . وقد هيأله طول ممارسة الحروب أن يكون له أكثر من حصان ، وأكثر من سيف ، فمن خيله المشهورة : البعيث ، والعطاف ، والكاملة ، واليعسوب . ومن أسيافه المعروفة : ذو النون ، والقلزم والصمصامة .

وماشتهر سيف من سيوف العرب فى الجاهلية والإسلام مثلما اشتهرت الصمصامة سيف عمرو ، ولقد أدير اسم الصمصامة فى مجالات ضرب الأمثال ، والتمثل فى الشعر ، والمقارنة بين وقع السيوف . وطبعى أن يكتب لسيف مثل هذا لقائد مثل عمرو أن تحاك حوله القصص ، وتدار حوله الأحاديث ، وأن يذهب بهما إلى أبعد مواطن الخيال . فقالوا فى المعدن الذى صيغ منه إنه كان من حديدة وجدت مدفونة عند الكعبة . ولعل ذلك كان لإضفاء الشرف والقداسة عليه . كما قيل من ناحية أخرى إن حديده من جبل (نُقم) المطل على مدينة صنعاء كما جاء فى الأكليل للهمذانى ، والروض الأنف للسهيلى .

ولو تتبعنا تاريخ الصمصامة وأيلولته إلى الشاعر الزبيدى لوجدنا أنه من بقايا السيوف اليرعشية الحميرية ، فهو من بقية السيوف فى عهد عاد .. وبهذا لم يكن حديث عهد بعمرو ، بل يرتد فى نسبته إلى أبعد التواريخ . ومن المؤرخين المتأثرين بالروايات الأدبية الخيالية من يرجع بالصمصامة إلى عهد بلقيس ملكة سبأ ، فقد جاء فى محاضرات الأدباء للراغب الأصفهانى ، وسرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة المصرى أن الملكة بلقيس أهدت إلى سليمان عليه السلام خمسة أسياف منها ذو النون والصمصامة . على أن الصمصامة تغيرت

به الحال بعد موت صاحبه الشاعر البطل، فانتقل خلال حروب الردة إلى خالد بن سعيد بن العاص ، ولم يزل فى آل سعيد يتناقلونه بالوراثة إلى أن اشتراه خالد القسرى بمال كثير وأنفذه إلى الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ، الذى كان حريصا على حيازته .. ولم يزل فى بنى مروان حتى زال الأمر عنهم .

وحرص العباسيون على اقتناء هذا السيف المتعالم المشهور بما صاحبه من ذكريات وبطولات عزيزة فى الجاهلية والإسلام إلى أن نراه يصير إلى الخليفة هارون الرشيد ثم يصير إلى الخليفة المتوكل حيث قتل به على يد غلامه التركى الذى تنقطع أخباره بعد ذلك عنده .

وما أكثر ما حكيت الأخبار حول الصمصامة ، حتى صار وحده مسرحا للبطولات من دون صاحبه الشاعر . إلا ما كان من اقتران اسم عمرو ابن معد يكرب الزبيدى به ، فهما متلازمان ، ولا يذكر السيف دون صاحبه . ومن أطرف ما رواه محقق الكتاب عما دار فى مجلس الخليفة العباسى موسى الهادى حول الصمصامة ما نقله عن الهيثم بن عدى حيث يقول : لما صار الصمصامة إلى موسى الهادى دعا به فوضع بين يديه فجرد، ثم قال لحاجبه : إيذن للشعراء : فلما دخلوا عليه أمرهم أن يقولوا فيه ، فبدرهم أبو الهول الحميرى — وقيل ابن يامين البصرى — بقوله :

حاز صمصامة الزبيدى من بـ
ـين جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو ، وكان فيما سمعنا
خير ما أطبقت عليه الجفون

قال : فأمر له ببدرة ، وقيل أعطاه السيف ثم اشتراه بعد بخمسين ألف درهم . ولعلها واحدة من حكايات كثيرة نظمت حول هذا السيف المأثور ...

هذا هو عمرو بن معد يكرب الزبيدى صاحب الصمصامة. وصاحب هذا الديوان الذى جمعه الأستاذ مطاع الطرابيشى من مصادر كثيرة متفرقة ،وبذل فى سبيل ذلك من الجهد مالايقوى عليه إلا ذوو القدرة من أهل التحقيق .

ولوأن ديوان عمرو بن معد يكرب الذى جمع فى أوائل القرن الثالث الهجرى كان باقيا على الزمن كما جمعه جامعه لما احتاج محققه اليوم إلى هذا العناء الذى بذله فيه ، فقد كان أقصى ما يعمله أن يقيم نصه ، ويضبط لفظه ، ويقابل بين روايات النسخ المخطوطة . ولكن ديوان عمرو الذى جمعه (إسحاق بن مرار الشيبانى الكوفى المتوفى سنة٢٠٦ هـ) مفقود اليوم ولايوقف له على أثر ، على الرغم من أنه كان متداولا بين أيدى الناس حتى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى . ولم يكن هذا الديوان إلا واحدا ،ثنى بديوان آخر لاحق للأول صنعه أبو عبد الله بن الأعرابى المتوفى سنة ٢٣١ هـ أى بعد إسحاق ببضعة وعشرين عاما ، ثم

جاء أبو سعيد السكرى المتوفى سنة ٢٧٥هـ بعد ذلك فصنع لعمرو بن معد يكرب الزبيدى ديوانا من صنعته هو واختياره . ومن المؤسف أن تضيع هذه الصنعات الثلاثة من ديوان عمرو مع ضرورتها للمؤرخين والنقاد ورجال الأدب . وكأن الأرض انشقت فابتلعت هذا الديوان بصنعاته الثلاثة، أو كأن الزمان اصطلح على أن يطمس آثار ذلك الديوان الذى كان شغل الناس زمانا طويلا .

وعجيب أن يبقى ديوان الزبيدى بأيدى الناس سبعة قرون أو تزيد يشار إليه ، وينقل منه ، ويروى عنه . فالأصبهانى صاحب الأغانى ينقل عنه ، وابن النديم فى الفهرست يشير إليه ، وابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ينقل فى كتابه (الأصابة) شيئا من شعر عمرو عن النسخة التى رواها إسحاق الشيبانى أول رواة ديوان عمرو بن معديكرب وصانعيه . وحاجى خليفة صاحب كشف الظنون المتوفى سنة ١٠٦٨هـ يذكر ديوان عمرو وإن كان لم يذكر لنا اسم صانعه . ولكن الديوان على كل حال كان موجودا حتى عصر صاحب كشف الظنون الذى وصل إليه علمه أو اطلع عليه . أما عبد القادر البغدادى — صاحب خزانة الأدب — المتوفى سنة ١٠٩٣ فقد اعتمد على نسخة من ديوان ابن معد يكرب ونقل منها إلى خزانته . وبعد هذا تنقطع أخبار هذا الديوان لحوالى ٣٠٠ عام فلا نجد من يذكره أو يشير إليه ، أو يصرح بأنه اطلع عليه ، ولانجد له ذكرا فى فهارس المخطوطات فى مكتبات العالم المعروفة، ولانجد واحدا صوره أو بشرنا بأنه وقف لهذا الديوان على أثر .

وإذا كانت أخبار ديوان عمرو قد انقطعت ، فأن شعر عمرو لا يزال مرددا فى مصادر ومراجع ومظان كثيرة متفرقة . نجده مبعثرا فى كتب اللغة، والتاريخ والفتوحات والبلدان ، والأدب . والنحو والقصص ، وغيرها مخطوطة كانت أم مطبوعة . وقد نجد البيت أو البيتين أو أكثر منسوبين إلى عمرو . وقد نجد ذلك منسوبا إلى غيره فى مصدر آخر ، مما يوقع فى الحيرة ، وينتهى إلى البلبلة والاضطراب.

ولعل مثالا واحدا نضربه يصور لنا ذلك الموقف المضطرب لبيت واحد من الأبيات المفردة المنسوبة إلى عمرو بن معد يكرب الزبيدى فى مصدر ، وإلى غيره من الشعراء فى مصدر آخر . فالبيت الآتى :

قوم إذا سمعوا الصريخ رأيتهم
من بين ملجم مهره أو سافع

فقد جاء فى تفسير الكشاف للأمام الزمخشرى منسوبا إلى عمرو (حـ٤ ص٦٢٠)، كما جاء كذلك فى تفسير أبى حيان (٤٩١/٨)؛ ولكنه جاء منسوبا إلى الشاعر حميد بن ثور الهلالى فى كتاب المقاصد النحوية للعينى ، وفى شرح شواهد المغنى للأمام السيوطى . ولما جاء الأستاذ المحقق الهندى

المعاصر عبد العزيز الميمنى فى زماننا هذا ليخرج لنا شعر حميد بن ثور الهلالى بصنعته هو وجمعه . أثبت هذا البيت المفرد نقلا عن العينى والسيوطى . وهنا يبين فضل المحقق مطاع الطرابيشى وجهده العظيم فى تخريج هذا البيت الذى وقف فيه العلامة الميمنى عند مصدرين اثنين وزاد الأستاذ مطاع الطراييشى الجهد وضاعفه ، فوصل فى تخريج هذا البيت إلى أنه ورد غير منسوب إلى قائل فى مراجع كثيرة منها : أساس البلاغة ، وشرح الحماسة للمرزوقى ، وشرح مقصورة ابن دريد للتبريزى ، وتنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات ، ومغنى اللبيب لابن هشام الأنصارى ، والأشباه والنظائر للسيوطى ، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ، والتهذيب للأزهرى ، ولسان العرب ، وتاج العروس للزبيدى (وهى هنا بفتح الزاى وكسر الباء الموحدة التحتية نسبة إلى مدينة زبيد باليمن) .

ومن الغريب فى أمر نسبة هذا البيت أن الإمام السيوطى ذكره فى شرح شواهد المغنى منسوبا إلى عمرو بن معد يكرب كما سلف القول أولا ، ولكنه فى كتابه الآخر : الأشباه والنظائر ، ذكره غير منسوب إلى قائل. أكان ذلك منه لغير معرفة بالقائل ، أم لأنه فى نظره معروف غير مجهول كما كان شأنه معه فى شرحه لشواهد المغنى؟

وما أكثر ماتحيرنا هذه الأبيات المجهولة النسب والأبيات المختلف فى نسبتها إلى قائلها . ولعل ذلك الإهمال والتهاون القديم فى الأصل عند الرواة السابقين هو الذى ساقنا إلى هذا المساق فى جمهرة عظيمة جدا من الشعر العربى تختلف فى نسبتها إلى أصحابها الحقيقيين ، والأمثلة على ذلك كثيرة جدا يفوتها الحصر ويخطئها الإدراك من كثرة ماتزدحم به ، فالبيتان :

لا تهنى بعد إكراماك لى
فشديد عادة منتزعه

لا يكن برقك برقا خلبا
إن خير البرق ما الغيث معه

قد جاءا فى كتاب الشعر والشعراء على أنهما لأبى الأسود الدؤلى جـ ٢ ص ٧٢٩ مع بيت ثالث يجعلهما ثلاثة . على أنهما جاءا فى « تمام المتون » للأديب الشاعر الصلاح الصفدى منسوبين إلى عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، ومن هنا أثبتهما المحقق الفاضل على أنهما لعمرو الزبيدى فى القسم الذى جعله خاصا بالشعر الوارد فى المصادر المختلفة . . . . ولا أدرى من هو أحق بالتوثيق والاطمئنان إليه فى نسبة هذا الشعر؟ أهو ابن قتيبة الأديب الثقة المحقق حين ينسبه إلى أبى الأسود الدؤلى؟ أم الصلاح الصفدى وهو متأخر عن ابن قتيبة زمانا ورتبة فى الرواية ؟؟

قلت إن عمل الأستاذ الطرابيشى فى صنعة ديوان عمرو بن معد يكرب وفى جمعه

وتحقيقه هوعمل لا يقوم به إلا أهل الكفاية والمقدرة فى الجمع والتتبع والتحقيق والمقابلة وإدامة النظر فى المراجع والمصادر على اختلافها . ويكفى مثلا أن نلقى نظرة على القصيدة التائية المرقومة بالرقم ١٠ فى هذا الديوان والتى مطلعها :

ومرد على جرد شهدت طرادها
قبيل طلوع الشمس أو حين ذرت

وقد بلغت عدة أبياتهـا أحد عشر بيتا آخرها البيت المشهور الذى جرى مجرى الأمثال — وليت محققنا أشار إلى ذلك ونبه عليه — وهو :

فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم
نطقت ، ولكن الرماح أجرت

فقد بذل المحقق فى تخريجها من الجهد والمتابعة والتتبع ما يشهد له بطول الباع ، وطول الصبر والمعاناة ، حيث رجع فى تخريجها إلى الأصمعيات ، وخزانة الأدب ، وشرح شواهد المغنى للبغدادى ، وشرح الحماسة للمرزوقى ، وشرح التبريزى ، والمقاصد النحوية للعينى ، والتذكرة السعدية ، والأشباه والنظائر ، وسرح العيون ، وشرح شواهد المغنى للسيوطى ، ومعجم البكرى ، والتنبيه ، واللآلى فى شرح الأمالى ، والحماسة البصرية ، ونظام الغريب ، وشروح سقط الزند للمعرى ، والتبيان للعكبرى ، والحيوان للجاحظ ، وديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ، وشرح القصائد السبع للأنبارى ، ومجمع الأمثال للميدانى ، وحماسة البحترى ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ، والمغنى لابن هشام ، والصحاح للجوهرى ، ولسان العرب ، وتاج العروس ، وأصلاح المنطق ، والمخصص لابن سيده ، وشرح المفضليات ، والبيان والتبيين ، وديوان المعانى الكبير ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ، وإعجاز القرآن للباقلانى ، والأضداد لابن الأنبارى ، والنقائض ، وعيار الشعر ، وأمالى الشريف المرتضى ، وتحرير التحبير ، ومعجم البلدان ، وشمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميرى ، وهكذا يرجع المحقق الفاضل إلى أكثر من أربعين كتابا ليخرج قصيدة واحدة لا تزيد أبياتها على أحدعشر بيتا ، أو ليخرج بيتا واحدا فيها . وناهيك من جهد عظيم ..

وبمناسبة (التذكرة السعدية فى الأشعار العربية) للعبيدى من رجال القرن الثامن الهجرى أقول لماذا رجع محققنا إلى النسخة الخطية مع أنها طبعت فى العراق بتحقيق الأستاذ عبدالله الجبورى سنة ١٩٧٢ بمساعدة المجمع العلمى العراقى؟ لعل المحقق لم تقع له هذه الطبعة فندله عليها ليضيفها إلى مكتبته!

إن هذه المعاناة فى التحقيق والتخريج قد اقتضت الأستاذ مطاع الطرابيشى أن يرجع فى تحقيق ديوان عمرو بن معد يكرب إلى مصادر كثيرة قاربت عدتها مائتى كتاب مابين مخطوط ومطبوع ، أوهى على التحديد

— كما دونها صاحبنا — ثمان وتسعون ومائة مصدر، فهى تقل عن المائتين كتابين . . . وهو عدد لايستهان به ، وخاصة أن المحقق لم يذكرها فى ثبت بآخر الكتاب للتكاثر والمباهاة والتزيد. وإنما ذكرها لأنه رجع إلى كل واحد منها ووقف عنده وأطال الوقوف .

ويبدو أن المحقق قد حذف من ثبت المصادر ما رأى السكوت عن ذكره ، أو ما أنسته العجلة أن يذكره ؛ ولاأدرى إن كان يملك هذا أم لاحق له فيه مادام قد استعان بهذه المصادر التى حذفها؟ ولاأدرى لم فعل ذلك ؟ فقد سقط من ثبت مصادره للتحقيق أمثال هذه الكتب : الدرر اللوامع ، وقد أفاد منه فى ص ١٨٥ ، ومختار الشعر الجاهلى، وهمع الهوامع للسيوطى وقد أفاد منه فى ص ٢٣٥ ، والمجانى الحديثة، وقد أفاد منه فى ص ٢١١ ، والبصائر والذخائر لأبى حيان التوحيدى ، وقد رجع إليه فى ص٢١٥، والهفوات النادرة وقد أفاد منه فى ص٢١٦، وفحولة الشعراء وقد أفاد منه فى ص ٢٢٥ ، وريحانة الألبا للشهاب الخفاجى ، وقد أفاد منه فى ص ٢٢٥ أيضا ؟ الحق أننا لانحاسبه على كتاب أو مصدر أسقطه من ثبت مراجعه على حين أنه رجع إليه وأفاد منه ، ولكنا كنا نرجوه أن لايكون ضنينا بذكر مصادره كلها فى ثبتها الأخير .

لقد أعاد محققنا الفاضل الأستاذ مطاع الطرابيشى ديوان شاعر الصمصامة عمرو ابن معد يكرب إلى المكتبة العربية بعد ضياع امتد زمنه إلى ثلاثة قرون . وإذا لم يكن أعاده على صنعة واحد من الثلاثة الذين صنعوه فى القرن الثالث الهجرى وهم : الشيبانى وابن الأعرابى والسكرى، لفقدان هذا الديوان بصنعتهم، فإنه بلا شك قد أعاده إلى المكتبة العربية مشرق الوجه ، مكتمل المتابعة ، دقيق التحقيق ، مستقيم الرواية والنص ، واضح الشرح بفضل مجمع اللغة العربية بدمشق الذى تستحق جهوده فى نشر التراث العربى أن يشار إليها دائما فى كل معرض للقول ...

محمد عبد الغنى حسن